مع قدرته على تحليل الشخصيات الى عناصرها أن يضم من هذه العناصر ما يريد ليخرج لنا فى النهاية رجلا مثل « اياجو » لهخلق خاص وطبيعة خاصة وسلوك خاص ؟

ولا يكتفى ما كولى بهذه البراهين التى ساقها للتفرقة بين الشعر والفلسفة ، بل انه ليخطو الى أبعد من ذلك فيقول انه ربما كان من المستحيل على أى امرئ أن يكون شاعراً لا ولا أن يفهم الشعر مالم يتجرد بعض الشىء من حدة عقله ، أو بعبارة أخرى مالم يكن له نصيب من خمود الذهن ، اذا صح هذا التعبير وجاز لنا أن نسمى تلك القوة العجيبة التى تملأ قلوبنا بهجة خموداً ذهنياً.

نعم ان الصدق فى الشعر أمر جوهرى ولكنه « صدق الجنون » ذلك لأننا فى الشعر نقيم الجدل الصحيح على المقدمات الزائفة ، فبعد أن نضع الفروض الأولى ، يسير كل ما بعدها فى توافق واتزان ، ولكن قبول تلك الفروض يحتاج الى نوع من التصديق قد لا يتيسر لنا إلا اذا ألغينا عقولنا مؤقتاً ، ومن ثم كان الأطفال أكثر الناس خيالاً ، فانهم يستسلمون الى الوهم ، فاذا ما عرضت أية صورة خيالية أمام أذهانهم عرضاً قوياً فانها تفعل بنفوسهم ما تفعله الحقيقة . وليس ثمة من رجل مهما بلغت قوة احساسه يتأثر بقراءة « هملت » أو « لير » كما تتأثر فتاة صغيرة بقصة الذئب والجدة العجوز ، ان تلك الفتاة تعلم حق العلم أنه ما من ذئب فى انجلترا ، وأن الذئاب لا تتكلم ، ولكنها على الرغم من يقينها هذا تصدق فتبكى فترتعد ، وذلك هو سلطان الخيال على العقول التى لم يصقلها العلم أو على الأمم فى عهد طفولتها .

ولن يترك ما كولى أدلته دون أن يتوجها بتشبيه بديع ، فهو يشبه الشعر بالفانوس السحرى ؛ فالشعر يرسم أطيافه فى مخيلة الشاعر ، أو كما يسميها ما كولى « عين العقل » كما يرسم الفانوس السحرى صوره فتتمثل بها العين الحقيقية « عين الجسم » وكما أن الفانوس السحرى لا يؤدى عمله على الوجه الأكمل إلا فى الحجرات المظلمة ، فكذلك الشعر لا يؤثر تأثيره القوى إلا فى العصور المظلمة ، عصور العقول الساذجة الفطرية التى لم تنيرها الفلسفة والعلوم . وكلما انتشر نور العلم وتمكنت العقول من استنباط الأصول وتقرير القواعد وكشف النقاب عن حقائق الحياة ، تضاءل تبعاً لذلك عمل الخيال وتزايل تأثير الشعر ، وحالت ألوانه ، وتلاشت أطيافه ، وهكذا ترى الفلسفة والشعر على طرفى نقيض .

تلك هى خلاصة آراء ما كولى فى العلاقة بين الشعر والمدنية وبين الشعر والفلسفة . ولعلى أعرض على القارئ فى القريب رأيه فى شاعرية ملتن ، فقد تعرض فى ذلك إلى كثير من الأفكار التى تدور حول الشعر ولغته ومحسناته ومراميه ؟

محمود الخفيف

فى الأدب الفرنسى

٦ ـ الدوق دى لاروشفوكو

للدكتور حسن صادق

فلسفته :

لما عجز لاروشفوكو عن تحقيق آماله ويئس من ارضاء طموحه ، صدف عن حياة الاجتماع الصاخبة ، وانطوى على نفسه وحللها ، واستعرض فى ذهنه حوادث الماضى وأخلاق الناس الذين عاشرهم ولاحظهم ، ثم طلع عليهم بمواعظه القاسية الأليمة التى تظهر عواطفهم فى صورة دميمة ، وتجعل لجميع أعمالهم مصدراً واحداً هو الأثرة . وليس عجيباً أن يقسو هذا الرجل فى الحكم على نفسه وعلى الناس ، وأن يقوده التفكير الى فلسفته اللاذعة ، لأن التحليل لا يتيح التسامح ، والغلو فى الشك يؤدى الى حب النفس . وأعتقد أن آراءه فى معاصريه وبيئته ، تنطبق على الانسان فى كل زمان ، مع أن الصور الذى يرسم البحر أثناء العاصفة فقط ، لا يعطينا عنه إلا فكرة ناقصة الى حد بعيد . ولكى يكون الحكم على الجماعة صحيحاً ، يجب ملاحظتها ودرسها فى حالتى الهدوء والشغب ، ولكن لاروشفوكو رأى الناس فى عصره يعملون مدفوعين بمصلحتهم الذاتية ، كما هو الحال دائماً أثناء الاضطراب الداخلى والحروب الأهلية ، فاستخلص من ذلك أن المصلحة الذاتية التى يسميها عزة النفس أو الأثرة هى الباعث على جميع الأعمال الانسانية ، وينبوع العواطف البشرية . ولا شك فى أن الانسان

يعمل دائماً طوعاً لمبدأ فى دخيلته يدفعه الى البحث عن مصلحته الذاتية وسعادته . ولكن يعاب على هذا الفيلسوف أنه يضع لجميع الأعمال والعواطف على اختلاف أنواعها تفسيراً واحداً ، على حين أن الطبيعة قد منحت الناس مواهب خاصة وغرائز متعددة وأذواقاً متباينة وملكات مختلفة تسبق الفكر فى كثير من الأوقات والحالات الى الحركة والعمل ، وجعلت لكل فرد طريقة يتبعها فى الوصول الى هدفه من الدنيا . وفى الحياة كثير من الناس يرثون عن أصولهم السذاجة الكريمة وصفاء القلب الجميل ، فليس لهم مبتغى ولا متمنى غير إسداء المعروف الى اخوانهم فى العاجلة مخلصين . وهم يلاقون فى سبيل ذلك عناء كبيراً ويصادفون أخطاراً جمة ويقدمون على تضحية كثيرة يستعذبونها . وطريقتهم فى الحياة هذه عزيزة عليهم ، يجدون فيها مثلهم الأعلى فى الشرف والسعادة . وليس من الحق والانصاف أن يسمى الباعث على أعمالهم أثرة بالمعنى الذى يقصد اليه لاروشفوكو ويفهم عادة من هذه الكلمة وهذا الفيلسوف أبيقورى كمعاصره (هوبز) [1]

الانجليزى الذى يرد بعض العواطف الهامة مثل الشفقة وحب البر والاحسان الى مصدر واحد هو المصلحة الذاتية . ولكن الحكيم الفرنسى توغل أكثر منه فى النفس الانسانية . وقليل من علماء النفس ماثلوه فى دقة التحليل ، ولم يصل أحد منهم بمثل مهارته الى هذا الجزء الخفى من النفس الذى تكمن فيه بعض الأفكار الأنانية العميقة . هذه الأفكار المبهمة ينفذ اليها لاروشفوكو بعقله ويخرجها الى النور دون أن تستطيع الافلات منه

ويرى هوبز أن فى الحياة لذتين رئيستين : لذة البدن وهى الاستمتاع ، ولذة النفس وهى الغرور ، ويفضل الأولى على الثانية . أما لاروشفوكو فيعتقد أن اللذة النفسية هى الجديرة بالتفضيل على غيرها . ويقول ، « أكبر مسرات النفس فى اعتقادى هى المجد الصحيح والمعارف الجميلة . وأومن بأن الذين يجعلون للذة الجسدية قيمة كبرى لايملكون من هذه المعارف إلا قليلا . وأرى أن اللذة الحسية خشنة مبتذلة تلهم الاشمئزاز ، ولا تستحق البحث عنها والسعى وراءها إلا اذا كان للذة النفسية نصيب كبير فيها

ولم يقل ذلك الا بعد أن مل العبث وكلف بالقراءة والتفكير العميق . وهو وهوبز يتفقان على أبيقور على أن الأعمال الانسانية ليست نقية من الغرض . وقد اتبعا طريقتين مختلفتين فى الوصول الى آرائهما ، ولكنهما التقيا فى نقطة واحدة . أما هوبز فقد استعمل طريقة الاستنباط (أى استخراج قضية من قضية أعم منها) والتعقل . وأما لاروشفوكو فقد اتبع طريقة الاستقراء (أى الانتقال من الخاص الى العام) والملاحظة . وكلاهما اتبع سبيلا واحدة فى اتجاهين متضادين ، ونجحا فى قطعها الى آخرها كل فى اتجاهه

لما كف لاروشفوكو عن حياة الخيال والدسيسة والشغب ، بدأ حياة الفكر وتسلل بعقله الى أبعد أغوار نفسه ، ولاحظ فى دقة نادرة نفوس أهل عصره . ثم وجد أنه أينما ولى بصره لايرى

(١) توماس هوبز ١٥٨٨ — ١٦٧٩ فيلسوف انجليزى نابه الذكر بعيد الصوت . تعلم فى أكسفورد ثم قام بتدريس الفلسفة لأحد أفراد أسرة كافنديش العريقة النسب . وزار فرنسا فقامت بينه وبين ديكارت وجاساندى أواصر المودة . ثم زار ايطاليا وتعرف فيها الى جاليليو . واشترك فى حركة بلاده السياسية ، وكان شديد التعصب للحكم المطلق . وقضى أعوامه الأخيرة فى الريف مشتغلاً بالأدب والفلسفة ، وكتب تاريخ حياته شعراً . وفى شبابه كان مولعاً بفلسفة أرسطو ، ثم صدف عنها ، ومال بارشاد (باكون) الفيلسوف الانجليزى المشهور الى الفلسفة التجريبية ، ثم الى الفلسفة المادية التى كانت السبب فى رميه بالالحاد . وله كتب كثيرة فلسفية ذهب له بها صيت وذكر . وقد تأثر بفلسفة ديكارت الرياضية وقال إن كل جوهر جسم وان كل ظاهرة مصدرها الحركة . وفلسفته هى المادية فى النظريات والمنفعة فى الأخلاق ، والاستبداد المطلق فى السياسة . وهو حسى كباكون يعتقد أن الحواس هى مصدر جميع المعارف البشرية . ويرى أن أسباب العمل اثنان ليس غير : البحث عن اللذة والهرب من الألم . ويعتقد أن الفلسفة بأكملها تتجمع فى دراسة الأجسام ، إذ ليس فى الطبيعة إلا حركة وامتداد . فالفلسفة هى دراسة الأجسام الطبيعية ، والأجسام الصناعية . ودراسة الجسم الانسانى تتطلب المنطق ، وعلم الكائنات ، وعلم الأخلاق ، وقوامه المصلحة الذاتية : وينبه الأجسام الصناعية وهى الجماعات السياسية بالجسم الانسانى . ومنعه النفى الأثر جعله يقر وجود « حالة بداوة » سابقة على حالة الاجتماع . وكل فرد فى تلك الحالة كان له الحق فى كل شىء . وينتج من ذلك أن الناس كانوا فى حرب دائماً لتعدد مصالحهم الذاتية وتباينها . ثم أدركوا أن السلام أعظم خير لأنه يمكنهم من الاستمتاع بما يشتهون فى دعة وهدوء ، فنعوا بعقد جميع الحقوق رجلاً واحداً ، أى أنشأوا سلطة اشترطوا فيها القدرة على إقامة النظام والمحافظة عليه ، وإخضاع الأفراد القانون أو على الأرجح لارادة فرد واحد ، وعلى هذه الارادة يتوقف الخير والشر . ولا يجد هوبز أى فرق بين القانون والارادة الاستبدادية ، أى لا يجد فرقاً بين القوة والحق . وكل سلطة فى اعتقاده مشروعية مادامت كائنة وفى استطاعتها المحافظة على كيانها . أما رأيه فى الكنيسة فهو وجوب خضوعها للدولة خضوعاً تاماً .

غير النفاق ، يطل عليه الغرور ، ويكمن خلفهما الأثرة . ودلته التجربة على أن هذه الأثرة كلما دقت واستخفت على الملاحظة ، كانت قوية حادة ، لأنه يجعل مقياسها مبلغ المشقة التي يعانيها الانسان في استكشافها .

ومن ملاحظاته التفصيلية الخاصة ، استخلص فكرته العامة عن الانسان ، وهي تتلخص في أن المصلحة الذاتية تقوده في كل موطن ، وحب النفس يدفعه الى كل عمل . وصاغ هذه الفكرة العامة في تعبير دقيق : « تتلاشى الفضائل في المصلحة الذاتية كما تتلاشى الأنهار في البحر » (موعظة رقم ١٧١) . ولكي يكسبها الوضوح والجلاء رجع الى ملاحظاته التفصيلية واختبرها ليثبت أن كل واحدة منها تدخل في حكمه العام . وهذا يدل على أن لاروشفوكو له أسلوب (مجموع المقدمات الصحيحة الموجزة الموصلة للحقائق) أو طريقة منظمة متناسقة متصلة الحلقات ، ومن يلق على مواعظه نظرة سطحية يرها مفككة الأجزاء مبعثرة ، ويعتقد أنها ملاحظات بسيطة دونها صاحبها مصادفة تبعاً للظروف دون أن يكترث لما سيكون لها من القيمة أو لما ستنتجه من الأثر . ولكن القارئ الذي يمعن في التفكير يجدها متصلة بأقوى إتقان بالأثرة العامة الشاملة ، وأشده ثباتاً وعناداً .

وهذه الطريقة تتلخص فيما يلي : الأهواء مصدر أعمالنا وأحكامنا وعواطفنا ، وكل فضيلة تفنى في الأهواء التي تجاورها ، كل فضيلة تقترب غاية القرب من رذيلة وتمتزج بها في ميدان العمل ، وإننا نطلق عليها اسم فضيلة بدلاً من الرذيلة المجاورة خطأ أو إرضاء لكرامة غرورنا أو كبريائنا : « إن ما نعده فضائل ، ليس في أغلب الأحيان الا مجموعة من أعمال متعددة ، ومصالح متنوعة يرتبها الحظ أو صناعتنا » (موعظة رقم ١) . فالرحمة — مثلاً — التي نؤمن بوجودها يقول عنها : « الرحمة التي يحسبها الانسان فضيلة ، تستعمل أحياناً بدافع الغرور وأحياناً بدافع الكسل ، وفي أغلب الأحيان بدافع الخوف ، وداعاً بدافع هذه الصفات الثلاث مجتمعة » (موعظة رقم ١٦) . ونرى من قوله أن كل عمل من أعمال الرحمة يتلاشى في إحدى الرذائل المجاورة أو يتلاشى فيها مجتمعة ، كما يتلاشى النهر في البحر . وهذه الجملة « التي يحسبها الانسان فضيلة » تدل على أن الرحمة ليست في ذاتها فضيلة ، أو على الأقل على أن مصدرها الغرور والكسل والخوف ليس غير ، مع أنها قد تصدر عن الشفقة وهي عاطفة عامة ، أو عن الطيبة الكريمة التي تشعر بها النفوس العالية الكبيرة . ولنضرب مثلا : يوليوس قيصر الذي انتصر على بومبيوس في موقعة فارسال (من أعمال اليونان الآن) في عام ٤٨ قبل الميلاد ، وأسر كثيراً من عظماء عدوه ، فانه عفا عنهم وكان في استطاعته قتلهم جميعا . فهل يقول العقل إن هذا العفو مصدره الغرور ، والغرور هو الكبرياء الذي تنشئه في النفس الأعمال التافهة الهزيلة ، وانتصار قيصر على عدوه ليس من الأعمال التافهة ، أو يقول إنه صدر عن كسل وهو في مقدوره أن يأمر بالقتل فيطاع ، أو يقول إنه صدر عن خوف وهو منتصر قوي ؟ ولكن لاروشفوكو لا يجد في الانسان طيبة نقية ، ويحرم علينا أن نؤمن بوجودها ، وهو يهر النظر بالضوء الذي يلقيه على رذائل الانسانية ، ويلقي بالفضيلة في ظلمة تحجبها عن الأبصار .

ولا شك في أن الرذيلة هي التي تسبب شقاء الناس ، وأن الفضيلة تهيئ لهم أسباب السعادة . فكل فكرة ترمي إلى هدم الفضيلة لتقيم على أنقاضها رذيلة ، هي فكرة قاضية على سعادة البشر . والفكرة التي تقضي على سعادة البشر لا يمكن أن تشتمل على حقيقة ، لأن صفة الحقيقة وعملها أن تسمو بالنفس لا أن تفسدها ، وأن تشع الحياة في الجماعات الانسانية لا أن تدمرها ، وأن ترهب الطغاة لا أن تشجعهم . وقد سبق القول إن هذا الفيلسوف صور نفسه وعصره ومواعظه . ورأيه في الرحمة يدلنا على ذلك أفصح دلالة ، لأنه ينطبق على سياسة الملكة آن دوتريش . فان هذه الملكة بعد أن ضحى لاروشفوكو في سبيلها كثيراً وشاكس ريشليو ورفض ما عرضه عليه من الرتب إرضاء لها ، لم تحسن اليه بعد أن أتيحت وصية على العرش ، بل أحسنت إلى الذين كانت تحقد عليهم . وهؤلاء كانوا أتباع ريشليو ، فلما مات هذا الوزير وخلفه في الحكم صنيعته مازاران ، بسط عليهم جناح حمايته كسلفه ، فلم تجد الملكة بداً من مداراتهم بالرحمة التي ألهمت لاروشفوكو موعظته .

يتبع

محمد صادق